

عجائية الحدث في نصوص الكرامة الصوفية؛ نماذج مختارة من كتاب (جامع كرامات الأولياء) للنهباني
The Miraculousness of the Event in Sufi Karamat Texts 'Selected
Samples from Nabhani's Jama'at Karamat al Awliya'

آسيا منصورية *

Assia mansouria

مخبر الشعرية.

جامعة الحاج لخضر باتنة 1، (الجزائر)

El Hadj Lakhdar University Batna 1 (Algeria)

assia.mansouria@univ-batna.dz

تاريخ النشر: 2025/03/02

تاريخ القبول: 2025/01/10

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

تتمحور هذه الورقة البحثية حول العجائي باعتباره خرقاً لنواميس الواقع، وذلك لارتباطه بالأشياء الخارقة وتأرجحه بين الواقع واللاواقع، بغية الخروج من المألوف، بما يحمله هذا الخروج من معطيات تبعث في المتلقي الحيرة والتردد، وتغرس في نفسه الفضول وحب الاكتشاف، فيتحوّل هذا المتلقي بين لحظة وأخرى من قارئ عادي لا يبالي بمعرفة المعاني الخفية وتفسير الظواهر الغريبة إلى قارئ حاذق يُسائل النصوص ويستكنه ببنائها الدلالية والرمزية المترامية في زواياها.

من هذا المنطلق ستسعى هذه الورقة البحثية لمسألة نصوص الكرامات الصوفية مسالة تحليلية بهدف استجلاء أبعاد العجائي في ثناياها، نظراً لأهميتها البالغة في تاريخ الفكر الإسلامي، ومكانتها المرموقة التي حظيت بها في الساحة الأدبية والنقدية على السواء، هذا من ناحية، بالإضافة إلى ما تحمله من ظواهر خارقة مثيرة للجدل من ناحية أخرى.

الكلمات المفتاح: عجائية، حدث، تصوف، كرامات صوفية، نهباني.

Abstract :

This paper focuses on the miraculous as a violation of the laws of reality, due to its association with the supernatural and its oscillation between the real and the unreal, in order to break out of the familiar, with the data that this

* آسيا منصورية: assia.mansouria@univ-batna.dz

departure carries in the recipient's confusion and hesitation, and instils in him curiosity and love of discovery, transforming him from an ordinary reader who is not interested in knowing the hidden meanings and explaining strange phenomena to a clever reader who questions the texts and investigates their semantic and symbolic structures in the corners of the texts.

In this sense, this paper will seek to analytically interrogate Sufi Karamat texts in order to explore the dimensions of the miraculous within them, given their great importance in the history of Islamic thought and the prestigious position they have enjoyed in the literary and critical arena, in addition to their controversial supernatural phenomena.

Keywords: Miraculous, Event, Sufism, Sufi Karamat, Nabhani.



المقدمة :

زخرت نصوص الكرامات الصوفية بالعجائبي، وذلك لكونها قائمة على خرق حواجز الواقعي الطبيعي بما تحمله من قدرات غير عقلانية تتطلب في حد ذاتها تأويلا باطنيا لكل بنياتها، مما جعلها ميدانا خصبا يفتح مصراعيه لكل الدراسات الحديثة التي تهتم بالعالم الغيبي وتأويلاته الفكرية والايديولوجية. وحتى نلم بالموضوع أكثر ونستوفي معالمة اخترنا كتاب "جامع كرامات الأولياء للنباني" لاستنطاق مكونات المتن الحكائي فيه وإبراز الأبعاد العجائية المتناثرة في نصوصه، على صعيد الأحداث، لما لها من دور في إحداث التردد العجائبي.

ولعل ما شجعنا على الخوض في هذا الموضوع هو اهتمامنا بميدان التصوف على العموم وقلة الدراسات حول هذا الكتاب بصفة خاصة.

وفي سبيل حديثنا عن الدراسات لابد من الإشارة إلى دراسة سبقت دراستنا ممتثلة في مقال تحت عنوان "عجائية الزمان والمكان في نصوص الكرامة الصوفية" بإشراف وفيق سليطين وبتول عدي يوسف، وقد عني هذا المقال بتقصي العجائبي على صعيد كل من الزمان والمكان؛ لذلك اهتمت ورقتنا البحثية بتتبع الحدث العجائبي في هذا الكتاب، واخراجه من غياهب القراءة السطحية إلى نور الشرح والتحليل.

والجدر بالذكر في هذا المقام أنه لا تخلو أي دراسة من منهج، باعتباره المنارة التي تأخذ على عاتقها السير بالبحوث نحو الاتجاه الصحيح والتنظيم المحكم لذلك ارتأينا الاستعانة بالوصف والتحليل في عملية نسج خيوط هذه الورقة البحثية، بداية بالتنظير لكل من التصوف والعجائبي والكرامات ومن ثمة تقصي الأحداث العجائية في الكتاب وتصنيفها ومن ثم تحليلها، وصولا إلى استخلاص حوصلة شاملة بعدما اتضحت معالم الدراسة واقتربنا من الوصول إلى خط النهاية، وتماشيا مع ما تم ذكره نطرح الأسئلة التالية:

- ما مفهوم العجائبي؟
- وما مفهوم الكرامة الصوفية؟ وما العلاقة التي تربطها بالعجائبي؟
- كيف أسهم العجائبي في إثراء قيمة المدونة (جامع كرامات الأولياء)؟
- وللإجابة عن هذه التساؤلات لابد من إلقاء نظرة موجزة على ماهية كل من العجائبي والكرامة أولا ثم خوض غمار النصوص الكرامية الصوفية ثانيا.

أولا: مفهوم العجائبي:

1. لغة:

ورد في مقاييس اللغة: "عجب" من باب العجب: عَجِبَ يَعْجُبُ عَجْبا، وأمر عجيب، وذلك إذا استكبر واستعظم¹ والعُجْبُ: روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء، وعَجِبَ عَجِيبٌ: شديد المبالغة، وهي عجيبة، (ج) عجائب²

يدل مصطلح العجائبي من الناحية اللغوية على شيء نادر الحدوث، مثير في نفس الإنسان حالة من الاستعظام والحيرة.

2. اصطلاحا:

"هو شكل من أشكال القص تعترض فيه الشخصيات، لقوانين جديدة، تعارض قوانين الواقع التجريبي، أما الفانتاستيك الذي يقابل (العجائبي) فيقع بين (الخارق) و(الغريب)، محتفظا بتردد البطل بين الاختيارين، كما يحدد ذلك تودوروف³ بتصريحه: "يرتبط العجائبي بالحاضر ويقوم فيه (زمن التردد والقراءة)، يطابق العجيب ظاهرة مجهولة لم تُر بعد أبدا، وهي آتية (المستقبل) وتتم في الغريب العودة بما لا يقبل التفسير إلى وقائع معروفة، إلى تجربة مسبقة، موجودة قبلا (الماضي)"⁴.

فالعجائبي مفهوم متصل بمفاهيم أخرى، ليست حكرا على الأدب فقط، وإنما هو عنصر يسري في العلوم الإنسانية والاجتماعية، له مسارات متعددة، يستقطب كل ما يثير ويخلق الإدهاش والحيرة في المألوف و اللامألوف⁵ كما يساهم أيضا في التجديد والانفتاح ومعالجة الواقع بسبل عديدة وغير مباشرة عن طريق المزج بين ما هو خيالي وما هو واقعي، "ويضع تودوروف لتحقيق العجائبي ثلاثة أركان: الأول هو ضرورة

اعتبار عالم شخصيات النص عالم أشخاص أحياء، والتعدد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق طبيعي للأحداث، والثاني أنه قد يكون التردد محسوسا من قبل شخصية داخل النص، كما هو محسوس من قبل المتلقي، أما الأخير فيتمثل في ضرورة استبعاد القراءة الرمزية أو الشعرية للنص العجائي وهنا يجب التنبيه إلى أن الركنين الأول والأخير ضروريان وملزمان أما الركن الثاني فهو احتمالي⁶ وبالتالي فالعجائي لصيق بكل العوالم الخيالية التي تسودها الخوارق واللاواقعية المتناقضة مع منطق الواقع.

ثانيا. مفهوم التصوف:

1. لغة: يبدو أنه من العسير تحديد مفهوم لغوي متفق عليه لكلمة تصوف، وذلك لتضارب آراء اللغويين واختلاف تصورات مؤرخي التصوف، إلا أننا في هذا المقام نكتفي بأكثر الاشتقاقات ورودا، وهي كون "كلمة تصوف مصدر للفعل الخماسي المصوغ من "صوف" للدلالة على لبس الصوف، ومن ثم المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام صوفيا"⁷، وهناك من يصرح أن أصل الكلمة مأخوذة من الصفاء حسب ما أشار إليه أبو الفتح البستي رحمه الله في قوله:

تَخَالَفَ النَّاسُ فِي الصُّوفِي وَاخْتَلَفُوا
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الْأَسْمَ عَيْسَرًا قَتَى
صَافِي فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي⁸
حَمَلًا وَظَنُّوه مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ

تعددت اشتقاقات لفظة التصوف حسب تعدد آراء أصحابها بين من يربطه بالبعد المادي من خلال ردهم هذه اللفظة إلى لباس الصوف، إلى من يجعله معنويا بجنا وذلك بربطهم إياه بالصفاء، إلى جانب من جعلوه متعلقا بالجالسين في الصف الأول بين يدي الله سبحانه وتعالى، ولو حاولنا تقصي جميع هذه الاشتقاقات ما اكتفيناهم بجزء.

ب- اصطلاحا: تعددت التعاريف التي أعطيت للتصوف بتعدد اشتقاقاته، لعل من أبرزها ما جاء في كتب أعلام التصوف ومؤرخيه الأوائل، نحو السراج الطوسي الذي أورد في لمعه مئات التعريفات لعل أبرزها تعريف الجنيد في قوله "التصوف هو أن تكون مع الله تعالى علاقة" وسئل سمنون رحمه الله عن التصوف فقال: "أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء، وسئل الجريدي عن التصوف فقال: الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني"⁹ ويذكر عبد القادر عيسى تعريفا لأبي الحسن الشاذلي رحمه الله في قوله: "التصوف تدريب النفس على العبودية وردّها لأحكام الربوبية"¹⁰ فإذا كان التصوف هو تهذيب للنفس، وتصفية البواطن من الرذائل والترفع عن الملذات الدنيوية، فإن الكرامة لا ترتبط إلا بالتصوف، ولا تقع إلا على عباد الله الصالحين الذين صفت قلوبهم من المآثم ومُلئت حبا لله عز وجل، خائفين من عقابه، مبتدئين عن معصيته، راغبين في جنته، منتظرين إشارات منه تكون دليلا لهم على رضاه، فيلقون هذه الهبات كجوائز مكافأة على إخلاص عبادتهم... وهي التي تُعرف بالكرامات الصوفية.

ثالثا. مفهوم الكرامة الصوفية وأنواعها:

1. لغة: يرجع أصل لفظة كرامة إلى "مادة (ك ر م) الدالة على الكرم الذي هو ضد اللؤم، والكريم من صفات الله تعالى وأسيائه وهو الكثير الخير، وقيل الجواد، وقيل المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، وقيل هو الجامع لأنواع الخير والفضائل والشرف، والكرامة أمر خارق للعادة غير مقارن بالتحدي ودعوى النبوة" 11 "ويقال حمل إليه الكرامة وهو مثل النزل" 12 من هنا يتضح أن أهل اللغة أطلقوا لفظة الكرامة على كل ما هو طيب، وتتناقص في الوقت ذاته مع كل أمر خبيث، كما تدل على المبالغة بالكرم، تلك الصفة المحبوبة عند جميع الأفراد.

2. اصطلاحا: يعرف نفر من العلماء وأهل الأصول الكرامة الصوفية بأنها "أمر خارق للعادة، ويظهر على يد عبد صالح غير مدع للنبوة غير مقرون بالتحدي" 13 وتكون للدلالة على صدقه وفضله، أو لقوة يقين صاحبها أو غيره، وهي جائزة وواقعة عند أهل السنة" 14 وثوافق هذه المفاهيم ما قدمه الجرجاني إلا أنه أضاف الفرق الجلي بين الكرامة والمعجزة تفاديا للخلط بينهما فيقول: "الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة" 15، فالكرامة إذن لا تظهر إلا "على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح" 16

إذن تتماثل هذه المفاهيم وتتداخل فيما بينها لتلتقي في معنى واحد للكرامة الصوفية وهو الفعل الخارق، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن الأولياء هم الذين تقع عليهم الكرامات بوصفها قوى خفية أو إشارات غير طبيعية يهبها الله لهم تكريما على حسن نواياهم، وإخلاصهم في العبادة من جهة، ودليلا ماديا يراه الناس من جهة أخرى فيتسارعون لتصديقهم وتقديرهم.

3. أنواع الكرامات: "هناك الكثير من الكرامات الصوفية والتي يعتقد في أصحابها الصلاح في العبادة الخالصة لله سبحانه وتعالى، حيث قُسمت إلى نوعين هما:

أ- حسية (ظاهرة مادية): وهي التي تظهر خارج الشخص ويمكن إدراكها بالحواس الظاهرة للمشاهد وتكون خرق لشؤون الحس العادي، ومن أمثلتها:

المشي على الماء، الاحتجاب عن الأبصار، طي الأرض، إجابة الدعوة في الحال، الإخبار بالغيبات، انغلاق البحر وجفافه والمشي فوق الماء، تكليم الجمادات والحيوانات" 17، فهذه الكرامات يصورها الإنسان بخلاف النوع الثاني الذي لا يظهر ولا يُبصر.

ب- معنوية (باطنية أو روحية): وتكون متحققة في نفس الولي أو في غيره، ومنها الكشف عن أسرار العالم المادي والنفسي والإلهي مما يتلقاه بعض المتصوفة بتوفيق من الله في أحوال الوجدان" 18

يتجلى لنا أن الكرامات الصوفية تنقسم إلى نوعين منها المرئي للعيان وهو الذي يراه عامة الناس ويندهشون منه، ومنها ما هو غير ظاهر على الإطلاق فقط يكون على شكل إشارات مرسلة من الله للولي الصالح، أو تجليات وفتح إلهي ينزله على قلبه.

رابعا. مظهرات العجائبي في نصوص كتاب "جامع كرامات الأولياء"

سنسلط الضوء فيما يأتي على الفجوات العجائية الموجودة في النصوص الكرامية للنهاني على مستوى

الحدث:

الحدث هو محور العملية الفنية يمتد بامتداد الزمان ويتسع باتساع المكان ويتشكل إثر سلسلة من الأفعال التي تنفذها الشخصيات لكونه العنصر الذي "يعتني بتصوير الشخصية أثناء عملها، ولا تتحقق وحدته إلا إذا أوفى ببيان كيفية وقوعه، والمكان والزمان، والسبب الذي قام من أجله، كما يتطلب من الكاتب اهتماما كبيرا بالفاعل والفعل لأن الحدث هو خلاصة هذين العنصرين" 19 ومن صور الحدث العجائبي في كتاب جامع كرامات الأولياء ما يروى عن "موسى بن ماهين المارديني لما أتت إليه امرأة بصغير وقالت: هذا فلان بن فلان عمره أربعة أشهر، فدعاه فأثاه يعدو، فأقرأه سورة الإخلاص فقرأها بلسان فصيح، ثم أصبح يمشي ويتكلم" 20 الملاحظ هنا أن الناس يثقون في الأولياء ويهتمون ببركاتهم، إضافة إلى أن إرادة الولي تجاوزت حدود المنطق عندما جعل صبيّا حديث الولادة يتكلم ويمشي في الآن نفسه، إضافة إلى كون هذا الصغير نطق أول مرة بلسان فصيح، بخلاف الأمر الطبيعي الذي يبدأ الصبي نطق كلمات غير مفهومة بعد مرور عامه الأول، وهذا ما يدخل المتلقي في دوامة لا متناهية من العجائية.

أضف إلى ذلك أن "محمد الشريبي كان إذا أراد أن يعدي في البحر يقول له المعدي: هات كراء، فيقول الشيخ عدنا لله يا فقير الله فيعديه، فأبى عليه يوما، وقال له: زمقتنا بجمازتك، فقال الشيخ ها الله وطأطأ الأبريق فأخذ ماء البحر كله فيه، ووقف المركب على الأرض، فاستغفر المعدي وتاب، فصب الأبريق في البحر فرجع الماء كما كان، أضف إلى ذلك أنه إذا احتاج لضيئه أو لبيته عسلا أو لبنا أو غير ذلك، فيقول للنقيب: خذ هذا الأبريق واملأه من ماء البحر، فيملأه فيجده عسلا أو لبنا أو غير ذلك على وفق ما يحتاج إليه" 21 يمكن أن نقول في هذا الصدد أن النص العجائبي له القدرة على الانقلاط من الإطار الواقعي، ذلك أنه يتميز بقدر كاف من الخيال، وهو الأمر نفسه يحصل مع هذا الولي الذي يملك إبريقا يسع ماء البحر كله، ما إن أراد جمع الماء طأطأ الأبريق، وإن رغب في إعادة البحر إلى حالته الطبيعية أفرغ محتوى الأبريق، ولم يتوقف الحدث العجائبي مع الإبريق هنا فقط بل إن هذا الولي يستعمله عند رغبته في الحصول على شراب معين، فيملأ إبريقه ماء من البحر ليتحول إلى ما يريد وحسب حاجته، فهذان الحدثان يثيران في ذهن المتلقي الغرابة والدهشة.

وكان "محمد السماع يصوم الدهر ولا يشرب ماء ولا يأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب، إنما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيحات من لحم مقلي" 22 وتبرز العجائية هنا في استغناء الولي عن الماء والخبز باعتبارهما العنصرين الرئيسيين اللذين لا حياة دونهما، ولا راحة للجسم بغيابهما، ولا صحة سينعم بها الإنسان إذا تخلّى عنها، فحاجته إليهما مستمرة باستمرار حياته، وهو الأمر الذي يجعل المتلقي يقرأ النص عشرات المرات بُغية الوصول إلى تفسير علمي يقنعه ويطفئ نار حيرته، لينتهي بفكرة مفادها أن الولي الصالح رأى ما لم يراه الناس العاديين، وعاش حياة تخالف ما عاشه متلقي هذا العصر.

ومن كرامات "يحيى بن أيوب البصري أنه كان يصلي فجاءت حية فجلست على قدمه فلم يتحرك أو يلتفت، فلما سجد خرجت فسقطت ميتة" 23 وتبرز أهمية الحدث في عملية التعجب من خلال جلوس الحية على قدمه دون أن يُصدر أي حركة أو انفعال، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على خشوعه وتقديسه للقاء الذي يكون بينه وبين ربه أثناء الصلاة، ثم تسقط الحية ميتة من تلقاء نفسها دون أن يمسه أو يتعرض إليها بالضرب.

أما "أبو يعزى يلنور المغربي (ولي صالح معروف بمولاي بوعزة ولد 442 جنوب المغرب) فقد جاء إليه رجل وقال له: لي أرض اقتات أنا وعيالي منها وقد أجذبت، فقام الشيخ معه وأتى إلى أرضه ومشى فيها فأمطرت أرضه حتى رويت ولم يبعدها المطر ولم تزرع أرض هناك سواها" 24، هنا يجد المتلقي نفسه أمام حديثين غير طبيعيين مؤسسين بالضرورة للفجوة العجائية، أولهما عندما مشى الولي في الأرض القاحلة فأمطرت السماء في تلك اللحظات، وثانيهما لما سقى المطر هذه الأرض فقط دون غيرها من الأراضي المجاورة.

و"محمد بن عمر أحمد الشيخ شمس الدين دخل عليه أحمد النخال، فوجد له سبعة أعين فغشي عليه، فلما أفاق قال له الشيخ: إذا كمل الرجل صار له سبعة أعين على عدد أقاليم الدنيا" 25 والجدير بالإشارة أن هذا النص ينتمي إلى نصوص الكرامات الصوفية التي يسهل اكتشاف العجائي فيها، والذي يظهر من القراءة الأولى في وجود سبعة أعين، وهو أمر غير مألوف فالله خلق عباده بعينين، كما ربط الولي سبعة أعين بأقاليم الدنيا السبعة، ومن كرامات "أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بالزعراني صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنهما: أنه وقف على قصاب فتركه القصاب ومضى، فلما ولى انقطعت يده، ولم يعد يقطع بها شيئا، فعلم القصاب ومضى، فلما ولى انقطعت يده، ولم يعد يقطع بها شيئا، فعلم القصاب أن هذا بركة الشيخ، فسعى إلى الشيخ، وقال يا سيدي لا تؤاخذني بما وقع مني فأني تأب إلى الله سبحانه وتعالى، فادع الله أن يعافيني فدعا الله تعالى له فعادت يده كما كانت" 26 يهض هذا النص بطاقات عجائية تجعل القارئ يعيش أكثر من لحظة تردد واندھاش تعود إلى الإيقاع السردي الذي يحدث حين يقرأ أو يسمع النص، فيجد ما تحمله شخصية

الزعفراني من قدرة في قطع إحدى أعضاء الجسم وهي اليد، ثم تمكنه من جعل اليد المقطوعة في مكانها مرة أخرى بعد دعوة الله مباشرة.

ومن كرامات "أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندي: أنه أخذ بيده قبضة من حشيش من البيت الذي كان فيه، ثم ضربها بأصبعه المسبحة، وقال: هذا نار، فاشتعل الحشيش نارا، وكان يغترف النار بيده من الكانون لحاجة فميسكه ما شاء الله ولا تعدو عليه"27 ونلاحظ أن العجيب يبرز في هذا النص الكرامي، من خلال قدرة الولي على تحويل الحشيش إلى نار من ناحية، ثم اغترافه النار بيده دون أن يحترق جسده أو تحترق ثيابه أو مكانه من ناحية أخرى.

ومن بين الحالات الموجودة عند الصوفية هي انقلاب الأعيان التي تندرج ضمن العجائبي وتمثلها قصة "الشيخ عيسى الهتار البيني الذي أرسل إليه شخص مستهزئا به إناءين ممتلئين خمرًا، فصب أحدهما في الآخر وقال: بسم الله كلوا، فأكلوا فإذا هو سمن لم يُر مثل لونه وريحه"28 نقول في هذا المقام أن انقلاب الأعيان من بين الكرامات الأكثر شهرة بين الأولياء والمتصوفين، فبين لحظة وأخرى تحول الخمر إلى سمن لذيد، ويعد هذا بالنسبة لهم أمرا واقعيا ومألوفًا، إلا أن المتلقي بعد سماعه أو قراءته لهذا الحدث الغريب يجد نفسه في حيرة من أمره، واقع في التردد العجائبي متأرجح بين كفتين إحداها تصديق الأمر والأخرى تكذيبه.

هذا بالإضافة إلى حكاية "إبراهيم بن أدهم ونداء الرمانة ليأكل منها، إذ أكل رمانة وقد كانت قصيرة فطالت، وحامضة فحلى رمانها وحملت في العام مرتين"29 فحين نسمع بتحدث الانس والجن واصدارهم ردود أفعال معينة فهو يبدو لنا أمرا طبيعيا، أما حين يتعلق الأمر بالحيوانات والجمادات فهو ضرب من الخيال، وشيء يصعب تصديقه، كيف لا! وهذه الرمانة فهمت كلام الولي واستجابت لندائه ولم يتوقف الأمر هنا فقط بل تجاوزته لأن تُقطف من الشجرة من تلقاء نفسها وطالت بعد قصرها، وتحول ذوقها من الحامض إلى الحلو نزولا عند رغبة الولي، وهو الأمر ذاته حصل مع "محمد بن أبي كير الحكمي البيني في شأن تكليم الجمادات لما ذهب إلى موضع كثير الشجر وقال لشجرة اعوجي، فاعوج شجر ذلك المكان كله وصار يعمل منه آلة الحرث للناس"30 ويتضح هنا استشراق الولي الصالح تحقق رغبته، حتى وأنها تعلقت بما لا يعقل ولا يبصر وبالتالي فهذه الكرامة الصوفية قد أسهمت في خلق فجوة التردد المستندة إلى خرق حدود المنطق والتلاعب به من خلال استيعاب الشجرة للكلام أولا، وتنفيذها للأمر ثانيا، وهو أمر خارق للعادة متسبب في خلخلة عجائية على مستوى الحدث.

أما بالنسبة لحكاية "أي تراب لما ضرب الأرض برجله فإذا عين ماء زلال، قال ابن السبكي: قلت وفي هذه الكرامة كالاتية خلق الله الماء في غير محله، وإطاعة الأرض لمن ضربها برجله"31 فتكمن العجائية في

خروج الماء العذب من الأرض فور ضربها من طرف الولي برجله، وهو الشيء الذي حفّز لنهوض العجائي الخارق للمعتول واكتساحه على كرامة الولي، فكيف للماء أن يخرج دون بحث عن مواقع تواجد ودون حفر؟ وقد يتم أيضا انزواء الأرض لبعضهم مثلما حكوا عن "ولي أنه كان في جامع طرسوس، فاشتاق إلى زيارة الحرم فأدخل رأسه في جيبه ثم أخرجه، وهو في الحرم" 32 وهنا تبرز الفجوة العجائية التي تُرخي بظلالها على القارئ أثناء قراءته الأولى، لما يجد الولي يتحكم في الأمور ويطوي الأرض طيا غريبا، بحيث ينتقل من مكان إلى آخر حسب أمانيه وميوله، فلما اشتاق إلى الحرم انطوت المسافات ووجد نفسه بين أحضانه في اللحظة نفسها التي صرح فيها عن اشتياقه له، وهذا قد يجعل القارئ الحاذق يعيد القراءة مرة ثانية وثالثة لعله يفسر الحدث الحاصل بطريقة منطقية، ويعيد نسج خيوط أحداث النص بما يتماشى وأفكاره.

أضف إلى ذلك حدث إحياء الموق الذي وردت فيه الكثير من الحكايات من بينها ما روي عن "الشيخ عبد القادر لما قال للدجاجة: بعد أن أكل لحمها قومي بإذن الله الذي يحيي العظام وهي رميم فقامت، وكذلك "الشيخ ابن يوسف الدهماني، إذ جاء إلى الميت وقال له: قم بإذن الله فقام وعاش بعد ذلك زمنا طويلا" 33 من هنا نستشف أن كلا النصين يحملان طاقات عجائية مكثفة على صعيد الأحداث، ليخلق فجوة عجائية بعيدة كل البعد عن الواقع؛ وذلك حين أمر الولي الدجاجة بعد أن أكلها وانتهى أمرها بأن تحي فتشككت عظامها المرمية حوله لتصبح دجاجة كما خلقت أول مرة، وهو الحال نفسه مع الولي الذي وجه أمر القيام للميت، فهذان حدثان غير منطقيين إلا أنها حصلا حين توافقت إرادة الوليان مع إرادة الله سبحانه وتعالى فاستجاب لدعائهما في الحين وتحقق العجائي.

ويستمر إسقاط اللامألف عن الأحداث في نصوص الكرامات الصوفية، وتتركز العجيب في ثناياها وها هو أحد أئمة الصوفية وأكابر العارفين "محمد بن علي بن جعفر أبو بكر الكناني البغدادي الذي يحكي عن كراماته قائلا: كنت بالبادية فرأيت فقيرا ميتا وهو يضحك، فقلت له: أتضحك وأنت ميت؟ فقال لي: يا أبا بكر كذا يكون محب الرحمن" 34 والملاحظ أن الحدث العجائي قد تجلّى في ضحك الميت من ناحية، وعودته للحياة بعد موته وتجاوره مع الولي من ناحية أخرى، وهذا ما أسس للعجيب من خلال كون الخيال مسرحا تُسجّت ضمنه خيوط نص الكرامة.

ولا سبيل إلى استقصاء ما يحكي من هذا النوع لكثرة، مروراً إلى كرامة صوفية من نوع آخر يمثلها "محمد بن رسلان المصري أبو عبد الرحمن الذي كان يخطط الثوب بدرهم، فإن أعطاه صاحب الثوب درهما جيدا وجد الثوب مفتوح الطوق، وإن أعطاه درهما مغشوشا وجد الثوب مسدود الطوق، فيعود إليه فيقول له: خذ درهمك، فيأخذه ويعطيه غيره فيجد الطوق مفتوحا" 35 نلاحظ هنا تداخل الأحداث الواقعية مع الأحداث التخيلية الوهمية لتحلق بالمتلقي في أفق اللاواقع، وهذا الدمج الحاصل بين أمرين أحدهما خياطة الولي للملابس

الآخرين بمقابل وهو حدث واقعي، أما ثانيها فيتجلى في ظهور حالتين على الثوب المحيط إما مفتوح أو مسدود الطوق؛ لما تكون الدراهم مزيفة أو جيدة وهو أمر غير واقعي، وبالتالي يشكل الأمران بعدا عجائبيا يخلق التردد والحذر للبشر العاديين.

ويبرز البعد العجائبي أيضا على مستوى الحدث فيما يروى عن "أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن الكميت بن سود المعروف بأبي حرية أنه ركب في البحر مع جماعة فتغير عليهم الريح في بعض الأيام وانكسر الدفل وسقط الشراع في البحر وأشرفوا على الغرق فتعلقوا بالفقيه ولازموه في كشف ذلك عنهم، فقام إلى الدفل ووضع يده على موضع الكسر وقال يا رسول الله أشعب، فالتأم الدفل بإذن الله تعالى وارتفع الشراع وساروا سالمين" 36 والملاحظ هو لمسة يد من الولي الصالح من شأنها أن تعيد كل شيء كما كان حتى خُيِّل للراكبين أنه لم يكسر شيء في السفينة أصلا، إضافة إلى تشبيههم -الراكبين- بالولي لما أحاط بهم الخطر، وهذا يدل على ثقنتهم بالكرامات التي تظهر مع هؤلاء العباد الأتقياء بالرغم أن ما حصل هو أمر خارق للعادة محدث لخلعة عجائبية عظيمة على مستوى الأحداث.

وأما ما يروى عن تحرك الجمادات وطاعتها لأصحابها كرامة "ذو النون المصري لما قال لأبو جعفر: من الطاعة أن أقول لهذا السرير أن يدور في أربع زوايا البيت ثم يرجع إلى مكانه فيفعل، فدار السرير في أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه، وهناك شاب قاعد فأخذ يبيكي حتى مات في الوقت" 37 ما يدعو إلى إثارة العجب هنا هو تحرك السرير في جميع الزوايا بطلب من الولي وإدراج هذا الأخير أمر دوران السرير من باب طاعة الأشياء له، إلا أن ما يثير الدهشة أكثر هو هلع الشاب المتواجد في الغرفة واستغرابه الشديد لدرجة أنه بكى بكاء ممتا، وهذا من عمق العجائبية حيث التلاعب بالأفكار الخيالية في الأوساط الواقعية، فكيف يمكن لسرير إصدار الحركة وهو من عالم الجماد؟

لما كان العجائبي يتأسس على قاعدة التردد والدهشة صار المتلقي يجد نفسه بعد قراءة أو سماع نصوص هذه الكرامات الصوفية للنهباني محتارا بين القبول العقائدي والتفسير المجازي لكون أحداثها مبنية في أساسها على الظواهر الغريبة المتجاوزة للواقع المعتاد.

وعندما "كان هذا المتلقي يمتلك حرية التلقي العجائبي استنادا إلى معطياته الثقافية ومعطيات النص الأدبي الحامل للجنيات العجائبية، كان العجائبي منفثا دلاليا لأجل إحداث تفاعل بين النص والمتلقي بطريقة تكسر نمطية التلقي، فتجعل هذا المتلقي يطرح تساؤلات ضمنية حول سيروية الأحداث ونتائجها، ليقف عند النتائج بمونولوج داخلي يجعله يحسم أمره ويخطّ بنفسه لحظة التنوير التي يرتئها هو بعد زوال العجائبي" 38 يتراءى لنا من خلال خوض غمار كتاب جامع كرامات الأولياء أنّ مؤلفه يوسف بن اسماعيل النهباني جمع بين دفتيه قصص وأخبار الأولياء من مصادر مختلفة ومتنوعة لم يتحرر الدقة في توثيق بعضها حسب آراء

الباحثين والمفكرين، كما أنه قدم لهذه الكرامات وعالجها من منظور إيماني لا نقدي، ذلك أن هدفه من وراء هذا متمثل في محاولته إبراز مقام أولياء الله الصالحين وتذكير الأمة الإسلامية بعظمتهم وعلو شأنهم في عصرهم، ساعيا لغرس بذرة المحبة في نفوس أبنائها اتجاه هؤلاء الصالحين.

خاتمة:

بعد رحلة شيقة في عالم المتصوفة وكراماتهم جُلث - قارئة بحثنا مستكشفة متذوقة لموضوع العجائبي على مستوى الحدث وتجلياته في الكرامات الصوفية، توصلنا إلى جملة من النتائج، جاءت على النحو الآتي:

- العجائبي تقنية من التقنيات الملازمة للكرامات الصوفية، وذلك لارتباطه بالأشياء الخارقة بغية الخروج من المألوف.

- هدف النهباني من وراء جمعه للروايات المتنوعة والمتعددة عن كرامات الأولياء في مختلف الأزمنة والأمكنة إلى إبراز مكانة الأولياء للأجيال اللاحقة وتذكيرهم بعظمة الصالحين، وتقوية إيمانهم وزيادة حُبهم للصالحين، وتبيان أثرهم في حياة المسلمين ككل.

- الكرامة الصوفية هي ثمرة لجملة من المجاهدات الصوفية والتدريبات الروحية التي يقوم بها الأولياء الصالحين، فيتلقون هذه الهبات كجوائز مكافأة على اخلاصهم في عبادة الله عز وجل.

- ارتبطت الأحداث العجائبية برؤية المتصوفة للعالم، حيث اندمجت التجربة الروحية بالبعد الماورائي.

- برز العجائبي على صعيد الحدث من خلال قدرات الأولياء على القيام بأفعال غير معقولة في أماكن خيالية، أدت بدورها لخلخلة حدود الزمن الطبيعي الذي عاهده المتلقي، وإنما أصبح كتلة من الأزمنة الغريبة التي تسعى لكسر أفق التوقع.

- أكثر البنات شيوعا في جامع كرامات الأولياء للنهباني هو الحدث العجائبي بالدرجة الأولى؛ إذ شغل حيزا أوسع في كتابه، ثم تليه البنات الأخرى مثل الزمان والمكان في الدرجة الثانية، دون أن تتحول أحدهن إلى آلية كلية ورئيسية يُبنى عليها نصه العجائبي لكونها آليات لا تقوم بوظيفتها إلا بتفاعلها مع بعضها البعض.

- كثرت الأحداث العجائبية في الكتاب كثرة بالغة جعلت بدورها الكتاب مرجعا غنيا لمحي الأديبات الصوفية والعجائبيات المثيرة.

هوامش:

¹ - أبو الحسين أحمد بن فارس، دت، معجم مقاييس اللغة، ج4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، ص243.

² - مجمع اللغة العربية، 2004، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، ص584.

³ - سعيد علوش، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب، بيروت. ط1، ص146.

- ⁴ - تزفتان تودوروف، 1993، مدخل إلى الأدب العجائبي، دار الكلام، الرباط، ط1، ص19.
- ⁵ - شعيب حليفي، دت، بنيات العجائبي في الرواية العربية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ص112.
- ⁶ - ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، 1984، التصوف، دار الكتاب اللبناني، ط1، ص25.
- ⁷ - ينظر: لؤي علي خليل، 2007، عجائبة النثر الحكائي - أدب المعراج والمناقب - التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، دط، ص15.
- ⁸ - العارف بالله أحمد بن عجيبة الحسن، 1119 إيقاظ المهم في شرح الحكم، دار المعارف، القاهرة، ص20.
- ⁹ - أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، 1914، كتاب اللمع في التصوف، مطبعة بريل، لندن، دط، ص25.
- ¹⁰ - عبد القادر عيسى، 2007، حقائق عن التصوف، دار العرفان، سورية، ط10، ص18.
- ¹¹ - محمد مرتضى الحسين الزبيدي، 2000، تاج العروس، ج33، التراث العربي، الكويت، ط1، ص335-350.
- ¹² - محمد بن أبي بكر الرازي، 2015، مختار الصحاح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ص369.
- ¹³ - عبد الرحمن دمشقية، دت، أولياء الله بين المفهوم الصوفي والمنهج السني السلفي، دط، ص60.
- ¹⁴ - زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، دت، ج1، دار صادر، بيروت، دط، ص05.
- ¹⁵ - علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، دت، معجم التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، دط، ص154.
- ¹⁶ - محمد خليل النومي، 2016، كرامات الأولياء بين الإثبات والنفي، دراسات علوم الشريعة والقانون، كلية الشريعة، الأردن، مجلد 43، ص347.
- ¹⁷ - صالح علي عبد النبي، 2019، مفهوم الكرامة الصوفية - مقارنة أدبية - بحث لنيل شهادة ماجستير، جامعة الكيب الغربي، ص67.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص68.
- ¹⁹ - شريط أحمد شريط، 1998، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دط، ص21.
- ²⁰ - يوسف بن اسماعيل النهباني، 2001، جامع كرامات الأولياء، ج2، مركز أهل سنت بركات رضا، الهند، ط1، ص496.
- ²¹ - نفسه، ج1، ص297.
- ²² - المصدر نفسه، ج1، ص196.
- ²³ - نفسه، ج2، ص519.
- ²⁴ - ينظر: نفسه، ج2، ص526.
- ²⁵ - نفسه، ج2، ص270.
- ²⁶ - نفسه، ج1، ص168.
- ²⁷ - نفسه، ج1، ص189.
- ²⁸ - نفسه، ص49.
- ²⁹ - نفسه، ص49.

³⁰ - المصدر نفسه، ص 196.

³¹ - نفسه، ص 51.

³² - نفسه، ص 49.

³³ - نفسه، ص 49.

³⁴ - نفسه، ص 176.

³⁵ - نفسه، ص 190.

³⁶ - نفسه، ص 233.

³⁷ - المصدر نفسه، ص 624.

- وفيق سليمان وتوتل عدي يوسف، عجائية الزمان والمكان في نصوص الكرامة الصوفية، مجلة جامع تشرين للبحوث والدراسات العلمية، جامعة سورية، مجلد 41، عدد 2، 2019، ص 217.

قائمة المراجع:

1. أبو الحسين أحمد بن فارس، دت، معجم مقاييس اللغة، ج 4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط.
2. مجمع اللغة العربية، 2004، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 4.
3. سعيد علوش، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب، بيروت، ط 1.
4. توفيق تودوروف، 1993، مدخل إلى الأدب العجائي، دار الكلام، الرباط، ط 1.
5. شبيب حليفي، دت، بنيات العجائي في الرواية العربية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء.
6. ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، 1984، التصوف، دار الكتاب اللبناني، ط 1.
7. لؤي علي خليل، 2007، عجائية النثر الحكائي - أدب المعراج والمناقب - التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، دط.
8. العارف بالله أحمد بن عجيبة الحسن، 1119 إيقاظ المهمل في شرح الحكم، دار المعارف، القاهرة.
9. أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، 1914، كتاب اللمع في التصوف، مطبعة بريل، لندن، دط.
10. عبد القادر عيسى، 2007، حقائق عن التصوف، دار العرفان، سورية، ط 10.
11. محمد مرتضى الحسين الزبيدي، 2000، تاج العروس، ج 33، التراث العربي، الكويت، ط 1.
12. محمد بن أبي بكر الرازي، 2015، مختار الصحاح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1.
13. عبد الرحمن دمشقية، دت، أولياء الله بين المفهوم الصوفي والمنهج السني السلفي، دط.
14. زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، دت، ج 1، دار صادر، بيروت، دط.
15. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، دت، معجم التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، دط.
16. محمد خليل النويهي، 2016، كرامات الأولياء بين الإثبات والنفي، دراسات علوم الشريعة والقانون، كلية الشريعة. الأردن، مجلد 43.

17. صالح علي عبد النبي، 2019، مفهوم الكرامة الصوفية – مقارنة أدبية- بحث لنيل شهادة ماجستير، جامعة الكيب الغربي.
18. شريط أحمد شريط، 1998، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دط.
19. يوسف بن اسماعيل النهباني، 2001، جامع كرامات الأولياء، ج1-ج2، مركز أهل سنت بركات رضا، الهند، ط1.
20. وفيق سليطين وبتول عدي يوسف، عجائبة الزمان والمكان في نصوص الكرامة الصوفية، مجلة جامع تشرين للبحوث والدراسات العلمية، جامعة سورية، مجلد41، عدد2، 2019.